مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
مؤتمر اللغة العربية وآدابها الدولي الثاني // أربيل 30 - 31 / 7 / 2025
doi.org/10.52866/esj.2025.26

من صور التكريم
في القرآن الكريم وأبعادها البلاغية

م.م. صفاء صالح عبد الحميد
كلية الآداب/ الجامعة العراقية

المستخلص:

تقصّى البحث الصور البلاغية في آيات تكريم الإنسان في القرآن الكريم وما لها من دور فاعل يعِّزز قيمة الإنسان ومكانته بين سائر المخلوقات، وما يترتب على ذلك من تأثير وتحفيز لهمَّته وبما يفعِّل البُعد التربوي لديه لأداء شكر هذا التكريم من المُنعم جلَّ في علاه، وقد خلُصت الدراسة بملحوظات عدَّة وأوصت بضرورة التمعّن في تلك الآيات، والتتبع لها بالاستعانة بعلوم اللغة والبلاغة والتفسير لفهم عمق الرسالة القرآنية.

الكلمات المفتاحية: الصور، البلاغة، التكريم، التأثير النفسي.

Abstract :

The study examined the rhetorical devices employed in the Qur'anic verses that highlight the honoring of the human being, and their significant role in reinforcing the value and status of humanity among all other creatures. It further analyzed the consequent impact of these devices in inspiring human aspiration, thereby activating the pedagogical dimension of the human soul in expressing gratitude for this divine honor bestowed by the Almighty. The research concluded with several key observations and emphasized the necessity of careful contemplation of these verses, encouraging their thorough investigation through the disciplines of linguistics, rhetoric, and Qur'anic exegesis in order to grasp the profound depth of the Qur'anic message.

المقدّمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الأكرم، أفصح من نطق بالضاد، أما بعد..

يعدُّ الإنسان أحد أبرز المحاور الأساسيَّة في الخطاب القرآني، وقد اصطفاه الله تعالى بمكانة سامية وصفات ميَّزته عن سائر المخلوقات، ومن ثمَّ سخَّر له النعم ظاهرة وباطنة تكريماً له، وقد صرَّح القرآن الكريم بتفضيل الإنسان في آيات غير قليلة في الكتاب العزيز، صيغت ببلاغة محكمة وتصويرٍ بياني تهش له المشاعر وتقشعر له الأبدان؛ لما ضمته من روعة المكانة والتشريف الإلهي.

ويهدف هذا البحث الى الوقوف على أبرز تلك الصور البلاغية التي وردت في آيات التكريم، وما ترتب عليها من عمَّق المعنى المقصود للنص القرآني، وقد اخترت نماذج منتقاة من تلك الآيات، واطلعت على تفسيرها بالاعتماد على كتب التفسير واللغة والبلاغة، مستعيناً بالله تعالى ليحفظني من الزلل في استجلاء المعاني والأثر المترتب على الأساليب البلاغية.

وقد قسَّمت الدراسة إلى مبحثين؛ الأول في تكريم الإنسان في الخَلق، وما اختُص به من صفات، أما المبحث الثاني فكان في آيات التسخير للإنسان، إذ سخّر الله تعالى مخلوقاته الأخرى وطوَّعها لخدمة هذا المخلوق العظيم.

وأحسب أنَّني قد بذلت جهداً غير قليل في هذا البحث، الذي يعدُّ أول دراسة لي في القرآن الكريم، بعد تهيُّبٍ لسنوات وحذرٍ من ولوج آياته العظيمة ومحاولة اكتناه ما تضمنته من معانٍ وصورٍ ودلالاتٍ وإشاراتٍ، وما يترتب عليها من أبعاد بلاغية وآثار نفسية، إلَّا أنني وبعد التوكل على الله تعالى خطوت أولى خطواتي في هذا الاتجاه، أسأله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يدفع عنه الخلل، وأن ينفع به ويجعله بداية لخطوات لاحقة أكثر نفعاً وأوسع أثراً إنَّه سميع مجيب.

المبحث الأول :
التكريم في الخَلق:

تجلَّى التكريم القرآني للإنسان من جوانب عدَّة، بدءاً من الخلق والتكوين الجسدي، مروراً بالصفات الروحية والعقلية، وصولاً إلى التعليم والتكليف، وفي هذا المبحث اخترت بعضاً من تلك الآيات الكريمة التي رسمت الإنسان بأبهى صوره المشرِّفة، ما دلَّ على مكانة هذا الكائن وعلوِّها على سائر المخلوقات.

السمع والأبصار والأفئدة: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1].

تتجلَّى في هذه الآية الكريمة صورة بلاغية رائعة، تتدرّج من لحظة الميلاد الأولى، إلى بث طاقات الإدراك والإحساس، مستبطنة أبعاداً تربويةً ونفسيةً وأدبيةً؛ فتقديم لفظ الجلالة «الله» على فعله دلَّ على التعظيم والاهتمام والعناية منذ أول وهلة، وهذه العناية التي اسندت له تعالى قُدمت على «أخرجكم» لتؤشر إلى وجودها حتى قبل الإخراج من بطون الأمهات.

والصورة الحسية «أخرجكم من بطون أمهاتكم» هي صورة لحال الضعف التي وجد عليه الإنسان وهو جنين في بطن أمه، فهو لا يملك حولاً ولا

(1) سورة النحل الآية: 78.

قوة، لولا تلك العناية الربانية، فضلاً عن أنَّ حال الإنسان «لا تعلمون شيئاً» دلَّت على حال الجهل بشكل عام، فهو لا يعلم شيئاً ولا يدرك شيئاً ولا يعرف ما يجري من حوله، فنفي العلم هنا نفي له ولأدواته، وإن كانت موجودة إلَّا أنَّها معطَّلة بإرادة الله لوقت محدد «فجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة»، وتنكير «شيئاً» بلغت المدى الشامل للجهل عند الإنسان قبل أن يعلمه الله، ولو وردت بصيغة المعرفة لضاق المقام على المعنى المراد، لكنَّها «المفردة النكرة» جاءت إيجازاً واختصاراً لكلمات كثر قد لا تغني ما أغنته من إرادة الشمول في حال الجهل بداية خروج الإنسان إلى هذه الحياة، لتأتي بعد ذاك العناية الإلهية مجدداً، «وجعل لكم» «معناه: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والترقي إلى ما يسعدكم»[1].

ثم أمعن النظر في التقديم والتأخير بين السمع والأبصار والأفئدة، فهي تعكس تدرّج الإدراك عند الإنسان يكون أولاً بالسمع وهو أول ما يعمل بعد الولادة، ثم البصر، ثم الفؤاد وهو بدلالة القلب والعقل، يقول الرازي: «تأمل في مراتب القوى الحساسة والمحركة والمدركة والعاقلة، وتأمل في مراتب المعقولات وفي جهاتها، واعلم أنّه لا نهاية لها البتة»[2].

ولا يفوتك حرف العطف «الواو» الذي يفيد المشاركة، فمع الإخراج من بطون الأمهات عملت الحواس تباعاً وهذه نعم من الله تعالى على الإنسان، الذي يبصر الحياة حال خروجه من بطن أمه.

أمّا قوله تعالى: «لعلكم تشكرون» فقد أفادت ما يُرجى من البشر مقابل تلك النعم، وحملت في طياتها تشويقاً نفسياً، إذ ربطت تلك النعم «السمع والأبصار والأفئدة» بالمسؤولية الملقاة على عاتق الإنسان بأن يشكرها، وأنَّ هذا الترابط بين تلك النعم والشكر جاء بقصد التنبيه على أنَّ الشكر لا يكون باللسان فحسب؛ بل بتلك النعم كلِّها، وهذا ما يحتِّم أن يكون الشكر عملاً وسلوكاً جسدياً بالحواس، فضلاً عن كونه عملاً وجدانياً وعقلياً باستشعار فضل الله وشكره، على أنّ «الشكر» لم يأت بصيغة فعلية كما في «خلقكم» «جعل لكم»، بل ورد بصيغة اسمية دلت على الدوام والثبوت والاستمرارية بأدائه، وهذا الثبوت الاستمرار الذي تحصل من الصيغة اللغوية «الاسم» متحصل أيضاً من الامتداد الزمني بين الإخراج من بطون الأمهات وعمل الحواس بما فيها القلب والعقل، وما يحتاجه من زمن غير قليل لنضوج الإدراك وما يرافق ذلك من عناية إلهية، أوجبت أن يكون الشكر ممتداً بامتداد عمر تلك الحواس.

التسوية في الخلق: قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[3].

في هذه الآية الكريمة تتجلّى واحدة من أعمق صور تكريم الإنسان في القرآن الكريم، إذ جمعت الآية بين الصورة البلاغية الدقيقة والبعد النفسي والروحي، فرسمت ملامح الإنسان من لحظة الخَلق إلى النفخة الإلهية للروح، إلى أمر الملائكة بالسجود له، كما أنَّ هذا الترتيب النسقي يؤشر الى عظم ما أراده الله تعالى لإنسان حتى قبل خلقه، فالآية هي خطاب من الله تعالى للملائكة قبل خلق الإنسان،

(1) الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: ج2/ 583.

(2) مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي: ج1/ 137.

(3) سورة ص الآية:72.

وقد سبقت التسوية الجسدية ونفخ الروح، وقررت على الملائكة السجود، فتأمل ذلك.

وإذا ما أمعنّا النظر في تركيب الآية نلحظ الفاء الفجائية «فإذا» أفادت التعقيب السريع، وفيها تصوير درامي للحظة الخلق، أمَّا «سويت» المضافة إلى هاء الضمير العائد إلى الله تعالى، فهي التشكيل في أحسن تقويم، فالمسوي هو الله تعالى بيده، وهذا مستفاد من الضمير، وهذا يعني أنَّ الإنسان لم يُخلق اعتباطًا، بل وفق تصميم جمالي متكامل من ناحية الجسد، يقول الزمخشري في الكشاف: "سَوَّيْتُهُ: عدلت خلقته وأكملتها وهيأتها لنفخ الروح فيها". (1)

وظهر الأسلوب المجازي العالي، في نفخ الروح، «ونفخت فيه من روحي» والنفخ «كَالصَّفِيرِ، وَاسْتُعِيرَ هُنَا لِوَضْعِ قُوَّةٍ لَطِيفَةِ السَّرَيَانِ قَوِيَّةِ التَّأْثِيرِ دُفْعَةً وَاحِدَةً، وَلَيْسَ ثَمَّةَ نَفْخٍ وَلَا مَنْفُوخٍ، وَتَقْرِيبُ نَفْخِ الرُّوحِ فِي الْحَيِّ أَنَّهُ تَكُونُ الْقُوَّةُ الْبُخَارِيَّةُ أَوِ الْكَهْرَبَائِيَّةُ الْمُنْبَعِثَةُ مِنَ الْقَلْبِ عِنْدَ انْتِهَاءِ اسْتِوَاءِ الْمِزَاجِ وَتَرْكِيبِ أَجْزَاءِ الْمِزَاجِ تَكَوُّنًا سَرِيعًا دَفْعِيًّا وَجَرَيَانِ آثَارِ تِلْكَ الْقُوَّةِ فِي تَجَاوِيفِ الشَّرَايِينِ إِلَى أَعْمَاقِ الْبَدَنِ فِي تَجَاوِيفِ جَمِيعِ أَعْضَائِهِ الرَّئِيسَةِ وَغَيْرِهَا»(2) فالروح من أمر الله، وإضافتها إلى ذاته إضافة دلَّت على أنه تعالى خصّ هذا المخلوق بحياة عقلية وروحية سامية.

ولم يقف التشريف في هذه الآية العظيمة عند حدود ذلك، فمع خصوصية الخلق الجسدي والروحي، حاز الإنسان على تفوق جسداً وروحاً على سائر المخلوقات الأخرى، فأمر الله الملائكة بالسجود له «فقعوا له ساجدين»، وفعل الأمر اقتضى الفُجاءة والسرعة بالامتثال الفوري والاضطراري بالسجود لهذا المخلوق العظيم، ولنا أن نعلم أنَّ السجود، هو أسمى صور التعظيم، وعظمته تتضح من أنَّه عبادة لله تعالى وقد خص به ذاته، إلّا أنَّه منح الإنسان هذا التكريم بجعل الملائكة تسجد له، فكان السجود تكريماً للإنسان بذاته الجامعة "الملائكة ما سجدوا للجسد وحده، بل لما اجتمع فيه من الصورة الظاهرة، والروح العاقلة، فهو تكريم لمجموع الإنسان."(3)

وهذا التكريم لا شكَّ يولِّد شعوراً داخلياً لدى الإنسان بالتفرّد والسمو، ويعزز لديه الإحساس بقيمته ومعنى حياته، "الروح التي نشعر بها في أعماقنا، هي أصل الإحساس بالكرامة الفردية، وهي التي تمنح الإنسان أفقا أوسع من المادة. " (4) يقول عبد الكريم بكار، "من أعظم ما يبني الذات أن يشعر الإنسان بأنه مخلوق لغاية، ومُكرّم من خالقه، وليس رقماً عابراً في هذا الكون."(5)

ولا يخفى ما في الآية من تناسق لفظي وإيقاعي، فتسلسل الجمل: «سويته، نفخت، فقعوا» بني بإيقاع ونغم موسيقي تصاعدي، يعكس حركة الخلق والتكريم وصولاً إلى ذروة الانقياد الكوني، وأنَّ هذا التناسق يعمّق في النفس الإحساس بأهمية وعظمة الإنسان في ميزان الوجود.

التعليم: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(6).

الصيغة الخبرية التي وردت فيها الآية الكريمة أفادت معنى التقرير، وهي صيغة تستعمل بلاغياً للإيحاء بعظمة الحدث وجلالته، من دون مبالغة

(1) الكشاف: 541/ 2.
(2) التحرير والتنوير: 44/ 14.
(3) مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي، 275/ 26.
(4) علم النفس التحليلي: كارل يونغ:212.
(5) تكوين المفكر: د. عبد الكريم بكار: 96.
(6) سورة البقرة: الآية 31.

أو انتقاص، وقد أسند فعل «التعليم» إلى الله تعالى بشكل مباشر، وهذا من التكريم والتشريف الإلهي لهذا المخلوق العظيم، "إسناد التعليم إلى الله بصيغة (علّم) فيه تعظيم للعلم نفسه، وتشريف للمعلَّم، وتقرير لمقام آدم أمام الملائكة". (1)

وممّا لا شك فيه أنَّ شمولية التعليم والإحاطة المتحصَّلة من لفظ (كلِّها) بالتقديم والتوكيد للأسماء، أفادت زيادةً على رفع قدر هذا المخلوق، ما منحه تفوقاً على سائر الخلق، فلو قال الأسماء فقط لاحتمل ذلك التبعيض والاختصار على جزء منها فقط، لكنَّ التوكيد هنا أقطعُ وأشدُ للإحاطة بالأسماء بأجمعها من دون استثناء.

ولنا أن ندقق النظر باقتصار التعليم على آدم حصراً دون الملائكة، وما في ذلك من تفضيل وتفوق له على سائر المخلوقات، وكيف أنَّ بلاغة الإيجاز والحذف بيَّنت ما لم ينطق به اللسان، «وتَجِدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إِذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تبن». (2)

و«الأسماء» هنا تحمل دلالة واسعة، تشمل أسماء الأشياء والصفات والوظائف، أي أنّ الله لم يمنح آدم فقط القدرة على النطق، بل على التصنيف والتجريد العقلي، ومعرفة ماهيات الأشياء والإدراك العقلي بما يجعله مؤهلاً لحمل الأمانة، وهذا من أعلى صور التكريم للإنسان، الذي «وهِبَ من الأسرار ما يرفعه على الملائكة، لقد وهب سر المعرفة، كما وهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق، وإنَّ ازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة.. إنَّ هذا كله بعض أسرار تكريمه» (3).

والآية تضع الإنسان مسلّطاً فوق عرش العلم، ممسكاً بزمامه دون غيره ممن خلق الله، فهو هنا متميز بالمعرفة والعلم، الذي اكتسبه من الله تعالى بشكل تعليمي مباشر، وهذه الصورة التعبيرية التشخيصية تحمل في طيّاتها صورة نفسيّة للإنسان الذي علَّمه الله، ما يعني أنَّه كائن لا يقوم فقط على الغرائز، بل يعتمد على ما اكتسبه من علمٍ وفهمٍ ومعرفةٍ وتحليلٍ عقلي، وهذا ما أوجب تكريمه وتفضيله بسجود الملائكة له، فضلاً عن إعداده ليكون مهيئاً لحمل الرسالة السماوية والقيام بأعباء الدين وما يترتب على ذلك من عبادات ومعاملات.

ومن الجانب النفسي أيضاً، يشعر الإنسان بقيمة ذاته حين يعلم أنَّه لم يُكرَّم بالقوة أو المال فحسب، بل كُرِّم بالعلم والمعرفة، وهذا يعني إحساساً بالجدارة الذاتية لا يقوم على المقارنة، بل على التفوق الفطري، وأنَّ هذه المعرفة التي فُضّل بها آدم على غيره تشكل نقطة الحسم في إنسانيته، فهو الكائن العاقل المتعلِّم، وهذه هويته التي اختارها الله له، ومما لا شك فيه أنَّ ما يترتب على ذلك، أن الإنسان حين يعلم أنَّ الله أودع فيها كل ذلك التعليم، يشعر أنَّ لديه طاقات هائلة للتطور العقلي والابتكار في كلِّ شيء، وأنَّ وجوده في الحياة ليس طارئاً أو ناقصاً، بل أنَّه خُلق ليُستخلف في الأرض ويُستعمر فيها.

حُسن التقويم: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(4).

الآية الكريمة افتتحت بالقسم والتوكيد، وهي صيغة توكيد مركبة، والقرآن الكريم راعى مواطن التوكيد واختيار المؤكدات، أدق المراعاة «فهو في غاية الدقة في اختيار الألفاظ المؤكِدة ووضعها في

(1) التحرير والتنوير: 343/ 1.
(2) دلائل الإعجاز: 146.
(3) في ظلال القرآن: سيد قطب، 57/ 1.
(4) سورة التين: الآية: 4.

موضعها المناسب بحسب طريقة فنية متقنة»[1]، وهذا الافتتاح يدلل على عظمة وأهمية الكلام الذي سيأتي بعدها «خلق الإنسان»، والخالق هو الله العظيم، وهو الذي أقسم وأكد مستعظماً هذا الكائن الذي وضعه بأحسن تقويم، وكأن الصيغ التعبيرية الأخرى لا تنسجم مع هذه العظمة حتى جاء بصيغة المبالغة «أحسن» وقد أضيفت الصيغة الى «التقويم» التي اختيرت بدقة ليدل على أكمل ما يكون من التكوين صورةً وعقلاً، كما أنَّ حرف الجر «في» جيء به منسجماً مع ذلك، لأنَّ فيه امتداد زمني لهذا الخلق يفهم عن بُعد، ولا يحقق مع الباء، مع يقيننا أنَّ قدرته تعالى تتلخص بـ«كن فيكون»، لكنَّ الامتداد الصوتي لحرف الجر «في» يُشعر بالعناية الخاصة منه تعالى بهذا الخلق دون سواه من سائر المخلوقات، فضلاً عن أنَّ صيغة الفعل الماضي «خلقنا» دلت على أنَّ خلق الإنسان تم بشكله الأول «خلق آدم وحواء» وانتهى فلا خلق مختلف للإنسان عن الخلقة الأولى التي لا ثانية لها، بعدما استودع الله تعالى صفة التكاثر بالزواج من نسل هذا المخلوق العظيم، وهنا تكريم وتفضيل وتشريف للإنسان من أنَّه أوحد على هذه المعمورة، وهذه الصفة تؤهله بأن يكون على قدر حمل مسؤولية الرسالة السماوية والقيام بأعبائها، فعلى قدر هذا الخلق العظيم تكون عظمة المهمة المناطة به، وهذا اختيار الله ﷻ.

والآية الكريمة تُرسّخ في الذات البشرية أنَّها خلقت في «أحسن صورة»، وكأنّها رسالة وجودية تمنح الإنسان شعوراً جد عميق بالكمال الذاتي الممنوح من الله، فالشعور بكل هذه العناية بالخلق وحسن التقويم يغرس في الروح الإنسانية احتراماً لذاتها قائماً على أصل الخلق الإلهي.

وقد جمع القرآن بين القوام الخارجي للإنسان وهو بأحسن صور القوام، والقوام العقلي والروحي، ما يشكِّل في النفس من إحساس بالتكامل والتناسق، فلا يمكن لنفسٍ تَعِي هذه الآية أن تحتقر ذاتها أو ترضى بالهوان؛ لأنَّ القرآن غرس فيها روعة الخلق والاهتمام الخاص من الله تعالى.

المبحث الثاني:
التكريم في نِعم الدنيا والآخرة للإنسان

تسخير البر والبحر: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[2].

من أول وهلة وأنت تسمع أو تقرأ هذه الآية يتجلّى لك التكريم من جوانب عدة، عبر صيغة المبالغة «كرّمنا» التي سبقها حرف التحقيق «قد» مؤكداً بـ«اللام»، ليُظهر روعة التكريم المؤكد المحقق، الذي أسند من ثمَّ لله تعالى مالك الملك الذي بيده مقاليد الأمور، وعلى قدر هذا الاهتمام بصيغة التعبيرية ابتداءً كإنسان أن تُطلق العنان لنفسك مستشعراً متأملاً بمديات لا نهاية لها تستقصي هذا التخصيص بالتكريم والعطاء الإلهي الذي منح لك، فافهم.

ولرب سائل يسأل عن سبب ورود التكريم بصيغة الفعل الماضي دون المضارع الذي يفيد الاستمرار؟ والجواب أنَّ الصيغة التي وردت بها الآية الكريمة أفادت التحقيق ابتداءً ومن ثمّ

(1) التعبير القرآني: د. فاضل السامرائي: 151.

(2) سورة الإسراء: الآية 70.

الشمول المستفاد من عمومية اللفظ بالتكريم، ليأتي بعدها التخصيص الذي أفاد استمرار الكرم بما يحتاجه من بعد مكاني وزماني يشمل عمر الإنسان، من «حملناهم في البر» «البحر» «رزقناهم من الطيبات» «فضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً».

وهذه النعم التي جاءت مخصصة وردت بجملتها بصيغ الفعل الماضي لما له من تحقيق مؤكد لا يقبل الشك، لتتجلَّى ذروة البلاغة في بيان تكريم الإنسان وتفضيله، ما لذلك من بُعد نفسي عميق في هذا التكريم الرباني، والآية ضمّت التكريم والتفضيل «كرمنا» «فضلناهم» وهي مبالغة في الكرم والتفضيل للإنسان على سائر المخلوقات، يقول الطاهر بن عاشور: «وَالْفَرْقُ بَيْنَ التَّفْضِيلِ وَالتَّكْرِيمِ بِالْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ فَالتَّكْرِيمُ مَنْظُورٌ فِيهِ إِلَى تَكْرِيمِهِ فِي ذَاتِهِ، وَالتَّفْضِيلُ مَنْظُورٌ فِيهِ إِلَى تَشْرِيفِهِ فَوْقَ غَيْرِهِ»[1].

والطباق في قوله «البر» «البحر» الذين التصقا بالعطف وأسندا إلى فعل الحمل وما بينهما من جمع بين مكانين متناقضين يدلان على سعة هذا التكريم، فالإنسان رغم قدرته على العيش في البر إلَّا أنَّه من كرم الله عليه جعله محمولاً فيها، كما أنَّه لم يُحرم التنقل في البحر، وهنا إشارة نفسية تدل على التمكين لهذا المخلوق، فقد وهبه الله القدرة على التنقل براً وبحراً وأن يحمل بها، وأنَ هذا التمكين خصَّ به الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات.

ولا يخفي ما للتكرار النسقي المتتابع للضمائر في ألفاظ «حملناهم» «رزقناهم» «فضلناهم» من تناغم في الصوت الذي ينتهي بشدة حرف الميم وما به من إطباق وقطع يتناسب مع شدّة التعبير وجزالته، وهو يوحي بالترابط الوثيق بجوانب التكريم الذي يأتي متدرجاً «حمل» «رزق» «فضل»، أمّا اختيار ضمير الغيبة ففيه من البعد النفسي ما لا يمكن أن يُتحصل مع أي ضمير آخر؛ فهذا الاهتمام الإلهي والتكريم والتفضيل فيه من الخصوصية الإلهية الشيء الكبير، فهي عناية مع الغياب «ضمير الغيبة» فكيف بالحضور؟

ولعل سائل يسأل عن مقارنة بالتفضيل بين الإنسان وغيره من الخلق، اعتماداً على قوله تعالى: «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا»، ولا شك أنَّ «كثير» أفادت العموم المنضبط بالخلق «ممن خلقنا» وهو هنا ليس مقارنة جزئيّة بين الإنسان وغيره، بل إذ دققت النظر فيها تجد فيها تمييزاً خلقيا شاملاً، إذ ضم التفضيل بالعقل والفهم والإرادة والتكليف والهيئة، وغير ذلك مما تعد أصولاً لكرامة الإنسان وعلو مقامه، وهنا يُتاح لبني البشر استشعار هذا العلو في المقام نفسيّاً مع إحساس الحريَّة والرضا والامتنان والانفتاح وسعة التفكير والإدراك، كما أن «تفضيلاً» أفادت المبالغة بالتفضيل، والمبالغة بالإحساس بتلك النعم، فكما أن الإبهام في التفضيل لا تحدُّه حدود معينة فإنَّ الإبهام والمبالغة في استشعار هذه النعم لا يقطعه مدى، فاطلق العنان لعقلك وقلبك أن يجول في كل تلك المساحات التي لا يصلها غير الإنسان المُنعَم عليه من الله تعالى، وعلى هذا فيقيناً أنَّ الآية الكريمة تحفِّز الإنسان لأن يكون على قدر هذه النعم وهذا التكريم الذي اختص به من مدبر الأمر، فالكرامة في اللفظ هي كرامة في النفس فإنها تكون شعوراً ومن ثمَّ سلوكاً إذا فهم المتلقي ماهيَّة الخطاب الموجه إليه.

تسخير ما في السموات والأرض: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ

(1) التحرير والتنوير: 166/ 15.

ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[1].

هذه الآية تصحبك في مشهد بالغ التأثير؛ يرسم ملامح تكريم الإنسان وتسخير الكون كله له، والإغداق عليه بالنعم المحسوسة والخفية؛ فالاستفهام التقريري مع فعل الرؤية «ألم تروا» فيه إثارة للقلب والعقل معاً وتذكير يفيد النظر والتأمل، فالاستفهام «أوفر أساليب الكلام معانياً، وأوسعها تصرفاً، وأكثرها في مواقف الانفعال وروداً، ولذا ترى أساليبه تتوالى في مواطن التأثر، وحين يراد التأثير، والشعور للاستمالة والإقناع».[2]

والاستفهام هنا كأنَّه يحمل في طيّاته تنبيها بعد تقصير «ألم تروا» وهذا التنبيه يستنكر غفلة الإنسان، فأنت تجول بين نعم الله في كل لحظة لكنك اعتدت عليها وكأنك لا تراها.

وتنبه فلا تُغفل خواطرك وذهنك بأن يجول في هذا الاستفتاح التصويري، على ما فيه من تأنيب خفي، الذي ثير من المشاهد التي يقيمها في وعي الإنسان، وفيه نسبة من العطاء على التقصير، وهي نعمة أخرى تضاف الى ما ستذكره الآية، فلو يؤاخذ الله تعالى الناس على كل غفلاتهم وتقصيرهم ما ترك عليها من أحد، إلّا أنّه يُذكِّر ويُذكِّر ويعدِّد للإنسان ما أضفى عليه من نعم حتى يعيده الى شكرها بلا غفلة وأن لا تشغله تلك النعم عن المُنعم.

ويأخذ التذكير في هذه الآية صورة حسيّة تكتسبها من لفظة «سخَّر لكم» التي اختيرت بعناية شديدة، فهي أبلغ من «هيَّأ» أو «جعل»، «وَالتَّسْخِير حَقِيقَتُهُ التَّذْلِيلُ وَالتَّطْوِيعُ، وَهُوَ مَجَازٌ فِي جعل الشَّيْء قَابِلًا لِتَصَرُّفِ غَيْرِهِ فِيهِ»[3]، والعموم متحصلٌ من «ما» وهو يشمل السموات والأرض بكل ما فيها، والتكرار في «ما» أفاد التوكيد وتعميم الشمول أوسع حتى لا يتبادر الى الذهن أنَّ هناك ما يُستثنى من هذا التسخير الإلهي فلا شيء إلا وذلله الله تعالى وطوَّعه خدمة لبني البشر، ولا يُجهل ما للتكرار من أثر نفسي في هذا المقام، فهو «وسيلة من وسائل الهدهدة النفسية»[4]

و«أسبغ عليكم نعمه» والإسباغ لا يقوم أي فعل آخر مقامه في هذه الآية بتحقيق مراده، فهو يشمل بشكل تصويري التغطية والإتمام والوفرة والكمال والدوام، وأنَّ إسناده الى النِعم دلَّ على غزارة العطاء وتنوعه، «ظاهرة وباطنة»، وهو طباق أفاد توكيد النعم واتساع المعاني المرادة منها، فهي ظاهرة تشمل الصحة والرزق والأمن، وباطنة تشمل العقل والطمأنينة والإيمان وغير ذلك، وقد أوجز الطباق كل تلك المعاني بأسلوب فني يدهش النفوس، «إنّ كل إحساس ينجم عن تصور أي استحضار صورة ذهنية للمحس، وإنَّ سماع أي كلمة ينشأ عنه استحضار صورة ذهنية مناسبة لمدلول تلك الكلمة».[5]

تسخير الأنعام: قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[6].

التذكير بنعم الله تعالى ورد في آيات عدَّة في القرآن الكريم مع اختلاف في طرقها البلاغية

(1) سورة لقمان: الآية: 20.

(2) فن البلاغة: 145 ـ 146 .

(3) التحرير والتنوير: 12/ 235.

(4) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: 184 .

(5) دراسات في علم النفس الادبي: 162 .

(6) سورة يس: الآية 71 – 73.

والفنية، وفي هذه الآية التي بدأت بالاستفهام الإنكاري التقريري «أولم يروا» الذي طوى توبيخاً للإنسان على غفلته من استشعار النعم المحيطة به والمسخَّرة له، تجد العناية الإلهية بالنعم ذاتها التي أوجدها للإنسان ما قد لا تجده في غيرها من الآيات؛ فإسناد فعل عمل تلك النعم الى الذات الإلهية عن طريق المجاز «عملت أيدينا» يُشعر بالعناية الخاصة بالإنسان بشكل غير مباشر؛ فالإنسان الذي خلقه الله تعالى بأحسن تقويم، عمل له بيده الكريمة النعم الأخرى من الأنعام وملَّكها له تمليكاً.

وانظر إلى البون الشاسع بين العمل والتمليك، فالعادة جرت أنَّ من يعمل شيئاً بيده يكون مُلكاً خاصَّاً له دون غيره، إلَّا أنَّ الحال مختلف تماماً مع الله؛ فما عمله بيده الكريمة يملِّكه للإنسان هبة منه تعالى، وهنا تكتسي الفكرة شعوراً مميزاً بالاهتمام الإلهي بهذا المخلوق «الإنسان»، وأنَّه ليس هيناً على الله تعالى، فالله الذي خلقه اختار أيضاً أن يخلق له أنعاماً ويملكه زمامها وقيادها، فهو يخلق والإنسان ينعم، فكيف بهذا الحال عندما تجد من يكفل لك الاهتمام والرعاية بتهيئة ظروف مناسبة لمعيشتك وخدمتك سخرها الله تعالى بيده لأجلك، فتأمَّل.

وتلحظ في الآية الكريمة، تقديم «لها على «مَالِكُونَ» الذي هو متعلَّقه، وهو هنا «لزيادة استحضار الأنعام عند السامعين قبل سماع متعلّقه، ليقع كلاهما أمكن وَقع بالتقديم وبالتشويق»[1]

وترى استعمال صيغة «فعَّل» التي تدل على المبالغة والتكثير، في قوله «ذللناها لكم»، لها من الدلالة البلاغية الشيء الكثير، فهي لا تعني مجرَّد ترويض الأنعام للإنسان بل انقيادها التام وخضوعها له، وفي هذا التعبير ملامسة فنية نفسية تشعر الإنسان بالطمأنينة والسيطرة على تلك النعم والأنعام بهدود وبلا جهد، كما أنها رغم قوتها الجسدية فهي لا تشكل خطراً على الإنسان بعدما ذُللت له.

وترى إذا ما دققت النظر في «فمنها ركوبهم» و«منها يأكلون» و«لهم فيها منافع» و«مشارب» تجسيداً لوفرة الأمن الحياتي والأمن الغذائي للإنسان وهي إشعار له بالطمأنينة والارتياح النفسي، وجاءت بالتدريج من الاستخدام الضروري أولاً من الركوب إلى اللذة والترف، وهذا التدرُّج لا يخلوا من لمسة بلاغية تفصَّل للإنسان تفصيلاً لربما لم يخطر على باله عند تذكيره بالرؤية فحسب «أولم يروا» فبعد الرؤية العينية تأتي الرؤية النفسية واستحضار ما يترتب على تلك الأنعام من منافع تنوعت إلى مشارب لم تحدَّ بحدود معينة، وهنا مخاطبة للوجدان الإنساني والعقل الجمعي، وتحريك لأحاسيس الامتنان والعرفان من خلال صور النعم المسخّرة للإنسان.

واعتماد الآية الكريمة الصور الحسيَّة للنِعم المعهودة والمحسوسة للإنسان أكثر أثراً منها في الصور غير المحسوسة، وفيها الاستشعار أشد، فقد صاغها القرآن من «عناصر كانت النفس قد تلقتها عن طريق الحس والوجدان، وليس في إمكانها أن تُبدع شيئاً من عناصر لم يتقدم للمتخيل معرفتها».[2]

تسخير البحر: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3].

(1) التحرر والتنوير: 23/ 68 – 69.

(2) الخيال في الشعر العربي: 13 .

(3) سورة النحل: الآية 14.

صورة البحر من الصور التي لها رهبة في النفس لعظمتها كآية من آيات الله تعالى تدلِّل على قوة الطبيعة وشدَّتها، وتهيُّب البحر مركوز في النفس الإنسانية فطريَّاً؛ لما فيه من اتساع لا يُحد، وعمق لا يدرك، وغموضٌ لا يُفهم، فهو يبعث في النفس الإنسانية خليطاً من مشاعر الإعجاب والرهبة والخوف، والآية الكريمة التي افتتحت بضمير الاختصاص «هو» أسند الى التسخير، ليؤكد اختصاص الله وحده بهذه القدرة التي تسخِّر البحر بما فيه من قوة ومن خيرات كلها للإنسان، وتسخير البحر «هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره، وهذه نعمة من نعم الله علينا، فلو شاء سلَّطه علينا وأغرقنا»[1].

وصيغة الفعل الماضي «سخَّر» أفادت هذه القدرة الثابتة والمستمرة للتمكين، أي أنَّ قدرة الله تعالى وقعت على البحر مرّة واحدة وقضت بأن يكون مسخّراً مطوَّعاً للإنسان على اختلاف الزمان والمكان، وهذا ما لا يمكن تحققه لو كان الفعل مضارعاً وما فيه من مقتضيات التجديد والتكرار، كما أنَّ دلالة الفعل الماضي آكد في أنَّ التسخير ليس شيئاً متخيلاً متأملاً وقوعه، بل بات واقع لا يمكن تغييره.

أما مضارعة الفعل «تأكلوا» فقد أفادت الاستمرار والتجدد والتكاثر للنعم الكامنة في البحر، وأنّها لا تنضب ولا منتهى لها، فدلالة التجدد فيه واستمراريته من بداية خلق الإنسان الى نهاية العالم، تقتضي توفر هذه النعم وتجددها اقتضاءً ملازماً لحاجة الإنسان، كما أفادت «من» التبعيضية المضافة الى ضمير البحر «منه» المعنى ذاته من العطاء الزاخر للبحر بلا حد ولا نهاية، وزادت عليه بأنَّ نعمه أكثر مما يحتاجه الإنسان.

و«اللحم يعني السمك، والحلية أراد منها اللؤلؤ والمرجان»[2]، والجمع بين الغذاء والحلية «تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حليةً تلبسونها» بيان أنَّ التسخير ليس مقصوراً على سد الجوع وإقامة أود الجسد، بل تمتد حتى تشمل ما تشتهيه النفس البشرية من الذوق والجمال، أما صفة الطراوة التي اتصف بها اللحم فهي إشارة حسيَّة أضافت للأكل بعداً آخر للذة والسهولة والانتفاع بلا جهد ولا عناء أو مشقة.

على أنَّ التنوع في النعمة والتنقل بين غذاء الجسد من جانب والزينة من جانب آخر، كأنَّه خطاب للنفس الإنسانيَّة لتلبية احتياجاتها المتنوعة، بما يُثبت أنَّ الإنسان مكرَّم عند الله تعالى بحاجته الجسديَّة والوجدانية معاً.

وإذا ما وقفنا عند الأسلوب الخبري في قوله «وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله» تجده يصوغ لنا المشهد الحي حسيَّاً، فهو يخاطب الحواس «ترى» بالبصر والحركة لجريان السفن «الفلك» وهي تشق عباب البحر تحزُّه حزاً وكأنَّها تشطره إلى شطرين، والمواخر «شواق للماء بجريها، يقال: مخرت السفينة الماء، ويقال للسحاب: بنات مخر، لأنها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر، لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره»[3].

كما أنَّها دلت على انتظام حركة السفن والانقياد التام لقوانين الطبيعية، ما يُثبت عظمة المخلوق

(1) الجامع لأحكام القرآن: 85/ 10.

(2) مختصر تفسير البغوي: عبد الله بن أحمد بن علي الزيد، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1416هـ: 505/ 1.

(3) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: 3/ 614.

والخالق فهذا المشهد وتقديم الفلك على المواخر وصف بصري مثير للاهتمام ومحقق للذهول بإبراز عظمة السفن وهيأتها وهي تسير بحركة منتظمة وبقوة فوق سطح البحر بأحمالها وبثقلها، وأنَّ هذا التصوير المستند إلى الواقع يدلل على القدرة التي تتجاوز حدود ما تتصف به المخلوقات، فتأمل كيف سُلبت من هذا البحر خاصية ابتلاع الأوزان الثقيلة مع هذه السفن التي تحمل الأطنان فضلاً عن وزنها، كما أنَّ سير الفلك في البحر هو أيضاً لخدمة الإنسان؛ نقلاً لبضائعه وتجارته واحتياجاته الأخرى، وفي صلب هذا المشهد التكريمي يأتي «لتبتغوا من فضله» و«لعلكم تشكرون» والابتغاء تحمل معنى السعي والطلب الذي يقع على هذا البحر المسخَّر للإنسان بمنافعه وسعته فهي دعوة للعمل والتوكل.

تسخير الحديد: قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1]

نلحظ في هذه الآية الكريمة استعمال «أنزلنا» بدلاً عن «خلقنا» وهذا الاستعمال لافت سيَّما وأنَّ معظم الآيات الأخرى التي فيها تسخير للمخلوقات لمنفعة الإنسان، وردت بالفعل خلقنا، قال صاحب الكشَّاف: «الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: أنزل الحديد، والنار، والماء، والملح»[2] على أنَّ بعض المفسرين نقلوا أن النزول أريد به «الخلق»، ومهما يكن من اختلاف في حقيقة النزول، فإننا أمام استعمال بدلالات بلاغية فلا شك أنَّ الحديد خلقه الله تعالى، سواء أكان أنزله من السماء أو أوجده في الأرض بشكل مباشر، إلَّا أنَّ إيراده بصيغة النزول لا الخلق قضى بتمييز وتشريف من الله تعالى لهذا الخلق العظيم، كما في إنزال الكتاب، ومما لا شك فيه أنَّ هذا التشريف للحديد مكتسب من صفاته ودلالاته على القوة والعِزَّة، وهذا يتضح من قوله: «فيه بأس شديد»، وهذا البأس هو قوة التأثير في الخصم عندما يكون الحديد سلاحاً، على أنَّ ثمَّة استخدامات أخر للحديد «فيه منافع للناس» فيحقق المنافع في الصناعات التي تعود بالنفع على الإنسان، في الزراعة والصناعة والتجارة.

ولك أن تمدَّ بصيرتك لهذا التقابل البلاغي المحقَّق بين القوة واللين «البأس» و«المنافع» الذي يبين كيف أنَّ مادة الحديد تتعدَّد أوجه استعمالها في الحرب والبناء وحتى الهدم، ولعل هذا من كمال التسخير وما يطوى عليه من تكريم للإنسان.

وليس هذا فحسب وكأنَّ الحديد الذي به تتهيأ أسباب القوة والبأس، فيه اختبار للإنسان «ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب»، فمع وجود أسباب الانتصار والدفاع عن الدين والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وهو «الحديد» وقعت الحُجة على الإنسان إن كان يصدق أم لا في نصره لله ورسله، و«بالغيب» أي بإخلاص قلب، إذا أنَّ سياق اقتران الانتصار لله بإنزال الحديد، يُثبت الاختبار والتمحيص، كما يثبت ذلك قوله «إن الله قوي عزيز»، الذي يفهم منه أنَّ الله تعالى له القوة والمنعة وهو المستغني عن غيره، إلّا أنَّه مع ذلك يريد من الإنسان نصرته والدفاع عنه.

تسخير الجنات: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ

(1) سورة الحديد: الآية 25.
(2) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: 4/ 478.

وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[1].

الآية الكريمة وكأنَّ بدايتها توحي بأنَّ العطاء من الله يجب أن يقابله عمل، لكنَّك تجد أنَّها ترتب عطاءً كبيراً على عمل قليل؛ فإذا ما أمعنت النظر في قوله «آمنوا وعملوا الصالحات» والتعبير مبني على حذف «الحياة الدنيا» أي أنَّ هذا الإيمان والعمل يكون في الحياة الدنيا حصراً، وجدته أنّه من كمال إنسانيَّة الإنسان أن يكون مؤمناً بالله عاملاً عملاً صالحاً، هو من مكملات كرامة الإنسان وفرض احترامه مجتمعيَّاً، فأنت تعمل لنفسك في الدنيا والله يعدك بعطاء في الأخرى، والفعل الدال على المستقبل «سندخلهم» المبني على حذف «في الآخرة» ليس فعلاً عابراً دالاً على الدخول الطبيعي إلى الجنة أو غيرها، بل أنَّ هذا الفعل أسند الى ضمير الفاعل العائد إلى الله تعالى، على أنَّ هذا الإسناد لا يدل على تكريم للإنسان فحسب، فانظر إلى ما يطوي تحته من أثر كبير، فالذي يُدخل الإنسان إلى الجنة هو الله تعالى، فالله لم يكلّف الملائكة بالقيام بهذه المهمة، بل أسندها الى ذاته العليا وهذا قمة في التشريف، ويتضح هذا المعنى أكثر مع تكرار الفعل «وندخلهم ظلاً ظليلاً» والتكرار هنا يستوجب التنقل في ذلك النعيم الموعود، وعلى هذا يترتب أثر نفسي وحافز عظيم في النفس الإنسانية يحفِّزه على العمل الصالح والإيمان لكسب كل ذلك العطاء.

واستعمال السين في الفعل «سندخلهم» بدلاً من سوف، يؤشر الى قرب الوعد بالعطاء، ما يعني قِصر عمر الإنسان وقِصر هذه الحياة التي تنتهي إلى دار الجزاء.

وانظر إلى التصوير الحسَّي المثير للرغبة في وصف العطاء، فالجنَّات تجري من تحتها الأنهار، وأفادت «من» أيَّ أنَّ تلك الجنات هي منبع وبداية جريان الأنهار، وهذه زيادات في التكريم، فلو قال تجري تحتها الأنهار، لكانت الأنهار تمر بالجنات مروراً عابراً، والمتعارف لدينا في الحياة الدنيا أنَّ الأنهار التي تمر في المزارع والبساتين مروراً عابراً لا تكون ملكاً خاصاً لصاحب البستان، بل هي أنهار مشتركة مع غيره، وللآخرين ممن اشتركوا معه أن يتحكموا بها وبكمية الماء وقد يقطعوه أحياناً، إلَّا أنَّه تعالى اختار الزيادة في نعيم وخيرات هذه الجنات أن جعلها منبعاً للأنهار وملكاً خاصاً وهذا يعني وفرة عطائها وثمارها، فانظر إلى هذا الوصف المحسوس في الآية، وكيف أنَّها تَّغري الإنسان وتثير طمعه وتحرك همته للفوز بها، وليس هذا فحسب بل أنَّ تلك الجنات اكتسبت صفة الخلود لساكنيها «خالدين فيها» والصيغة الاسميَّة لخالدين اقتضت الثبات واللزوم، وهذا الخلود فيه من إثارة الطمأنينة والارتياح النفسي ما لا يتحقق مع غيره، فالجزاء ليس على قدر الفترة الزمنية للإيمان بالله والعمل الصالح، وليست على حجمه ومقاسه، بل بقاء لا فناء بعده وهو جزاء تام دائم لا نهاية له ولا حد «أبداً».

ولا يقف العطاء عند هذا الحد، فتلك الجنات لا وحدة ولا عزلة بها، ففيها أيضاً الأُنس «أزواج مطهرة»، ويحتمل اللفظ طهارة الجسد، من الحيض وغيره، وطهارة الروح من الحقد والغيرة والحسد وما شابه ذلك، وهذا ممَّا يعمِّق إثارة الرغبة النفسية في تلك الجنات.

و«ندخلهم ظلاً ظليلاً» الإدخال الذي ورد مكرراً بصيغة الفعل، دلَّ على سعة تلك الجنات، وما فيها من مرافئ فالتنقل هنا وهناك من تمام السعة وتمام الراحة، وأنَّ ما فيها من أماكن ممتعة فيها أخرى أمتع، والظل هو ما تشتهيه النفس

(1) سورة النساء: الآية 57.

الإنسانية، أما الظليل فهو زيادة فيه، ولم يأت الظليل بصيغة فاعل أو صيغة مبالغة لمجرد تكثيفه، بل ورد بصيغة «فعيل» فتناسب الظل تناسباً طيباً عذباً للنفس، فهو ليس كثيفاً يصل حد العتمة ولا خفيفاً لا يحفظ من يستظل به.

لقد لامست بلاغة الآية الكريمة النفس البشرية ملامسة عميقة، فما جمعته من الوعد والجمال والمتعة والأمان والديمومة، أغرت الإنسان في إشباع حاجاته الروحية والوجدانية، فالقرآن لا يعد بالأفكار النظرية بل يحاكي حاجة النفس الإنسانيَّة فلا أثر للكلام «إلّا إذا صادف هوى في نفوس القارئينَ أو السامعين، وحرّكَ انفعالاتهم الساكنة، وأثار عواطفهم الكامنة».[1]

الخاتمة

هذه الدراسة هي محاولة لاكتناه الأبعاد البلاغية في آيات تكريم الإنسان، وبعد تتبع وتحليل دقيق استند إلى اطلاع على الآيات في كتب التفسير واللغة خلصت إلى نتائج عدَّة، نجملها فيما يلي:

- في آيات التكريم، لم يقدم القرآن أفكاراً نظريةً، بل حاكى حاجة النفس البشريةَ محاكاة وجدانية ليحرَّك الرغبات ويثير الهمَّة.
- صيغت آيات التكريم بأساليب بلاغية بديعة، منحت الإنسان تشريفاً وتعظيماً أبرزت ما له من مكانة على سائر المخلوقات الأخرى، وهو ما حتَّم عليه بالمقابل أن يكون أهلاً لهذا التشريف الإلهي إيماناً وعملاً.
- اعتمدت الآيات في معظمها، على التصوير الحسِّي، لما له من أثر وتفاعل لدى المتلقي.
- وتكشف الصور البلاغية في هذه الآيات دقة التصوير وجمال التعبير، إذ تتنوع بين الاستعارة، والتشبيه، والتقديم والتأخير، والتكرار، والطباق، وغيرها من فنون البلاغة، بما يخدم المعنى ويرسّخه في النفس.
- لامست الآيات ببلاغتها النفس البشرية بشكل عميق، لما ضمته من الجمال والمتعة، والوعد المقرون بالعطاء وأغرت الإنسان في إشباع حاجاته الروحية والوجدانية.
- تتلمّس مع هذه الآيات كرامة اللفظ، التي هي كرامة للنفس الإنسانية، ولها مال لها توليد شعور هذه الكرامة ومن ثمَّ تكون سلوكاً إذا فهم المتلقي ماهيَّة الخطاب الموجه إليه.
- لهذه الآيات أبعاد بلاغية تربوية وتهذيبية للنفس الإنسانية، وأنَّ كل صورة من صور العطاء وتطويع المخلوقات الأخرى للإنسان، وتفضيله من ناحية الخلق جسديا وعقلياً، تجعله يُمعن التفكير في كلِّ ذلك وأنَّ التفكير يعيد له وعيه ويُشعره بأهميته وهذا الشعور يُهذب الروح البشرية ويؤجج الوعي الإنساني والإيماني.

المصادر والمراجع

القران الكريم

1. التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م.
2. التعبير القرآني: د. فاضل السامرائي، دار ابن كثير للطباعة والنشر، دمشق - سوريا، ط2، 1439 هـ - 2018م.
3. تكوين المفكر: د. عبد الكريم بكار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1431 هـ - 2010 م.

(1) دراسات في علم النفس الأدبي: 187.

4. الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تح: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1423 هـ/ 2003 م.
5. خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط4، 1416 هـ 1996 م.
6. الخيال في الشعر العربي: محمد الخضر حسين التونسي: المطبعة الرحمانية، دمشق، 1430هـ - 1922م.
7. دراسات في علم النفس الأدبي: حامد عبد القادر، المطبعة النموذجية، 6 سكة الشابوري بالحلمية الجديدة، (د،ت).
8. دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، تح: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1413هـ - 1992م.
9. علم النفس التحليلي: كارل يونغ، ترجمة: نهاد خياط، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية - سوريا، ط2، 1997 م.
10. فن البلاغة: عبد القادر حسين، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1405 هـ 1984 م.
11. في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، دار الشروق، بيروت، ط17، (د،ت).
12. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار إحياء التراث العربين بيروت، (د،ت).
13. مختصر تفسير البغوي: عبد الله بن أحمد بن علي الزيد، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط 1، 1416هـ.
14. مفاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420 هـ.